بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

فضيلة قيام الليل وموقفه في تحصيل العلم

الإمام يخشى الله منصور

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ ﴿المزّمّل [٧٣]: ١-٤﴾

وهو التغطى فى الليل وينهض إلى القيام لربه عز وجل كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿السجدة [٣٢]: ١٦﴾. وكذلك كان رسولُ الله ﷺ ممثلا ما أمره الله من قيام الليل وقد كان واجبًا عليه وحده كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ﴿الإسراء [١٧]: ٧٩﴾ قال ابن كثير –رحمه الله تعالى– امرله بقيام الليل بعد المكتوبة كما ورد فى صحيح مسلم عن ابى هريرة –رضي الله عنه– عن رسول الله ﷺ أنه سئل: ﴿أي صلاة أفضل بعد

المكتوبة؟ قال صلاة الليل وفى رواية قال الصلاة فى جوف الليل أي باطنه وساعات النقرغ فيه للعبادة﴾

وصلاة الليل أو قيام الليل وهو ما يسمى بالتهجد من قولهم اهجد البعير اذا القى جرانَه على الأرض متحريا للهجود أي النوم والهاجد النائم وهجدته فتهجد أزلت هجوده نحو مرضته أي أزلت مرضه.

والأمر بالتهجد وان كان خاصًا برسول الله ﷺ إلا ان عامة المسلمين يدخلون فيه يحكم أنهم مطالَبون بالاقتداء به ﷺ وقد جائت فى كتاب الله فضائل التهجد. منها:

١. ان يقيم الله فاعلَه مقامًا محمودًا. فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ﴿الإسراء [١٧]: ٧٩﴾ أي أفعل هذا الذي امرتك لنقيمك يوم القيامة مقاما يحمدك فيه كل الخلائق وخالقهم تبارك وتعالى.

٢. ان المحافظين على قيامه هم المحسنون المستحقون لخيره ورحمته فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)

كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ ﴿الذاريات [٥١]: ١٥-١٨﴾ فقال الإمام الحسن البصري يعنى لا ينامون من الليل إلّا قليلا فهم يكابدون الليل فى القيام والركوع والسجود ومع ذلك يختمون هذه العبادة بالإستغفار.

٣. مدحهم واثنى عليهم ونظمهم فى جملة عباده الأبرار فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)﴾ ﴿الفرقان [٢٥]: ٦٣-٦٤﴾ أي والذين يبيتون ساجدين قائمين لربهم أي يحيون الليل كله أو بعضه بالصلاة. وخص العبادة بالبيوتة لأن العِبادة بالليل اخمص وابعد من الرياء.

٤. شهدلهم بالإيمان بآياته فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾ ﴿السجدة [٣٢]: ١٥-١٦﴾ أي ينحتون عن مضاجِعِهِم التى

يضطجِعون فيها لمنامهم فلا ينامون داعين ربهم خوفًا من سخطه وعذابه وطمعًا فى عفوه عنهم وتفضله عليهم برحمته وعفوه.

٥. نفى التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم ينصف بوصفهم فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَٰخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ﴿الزمر [٣٩]: ٩﴾

أي أأنت أيها المشرك احسن حالًا ومآلا ام من هو قائم بأداء الطاعات ودائب على وظائف العبادات فى ساعات الليل التى تكون فيها العبادة أشق على النفوس وأبعد من الرياء، فتكون أقرب إلى القبول وهو فى حال عبادته خائف راج؟ لا شك أن الجواب لا يحتاج إلى البيان واما مائت فى سنة رسول الله ﷺ منها:

١. قوله ﷺ: ﴿يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَدٍ يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطًا طيب

النفس وإلا أصبح حبيث النفس كسلان﴾ ﴿متفق عليه عن أبى هريرة﴾

٢. قوله ﷺ: ﴿عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم ومطردة للداء عن الجسد﴾ ﴿رواه الترمذى وقال انه أصح﴾

٣. قوله ﷺ: ﴿اتانى جبريل فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس﴾ ﴿الحاكم، صحيح﴾

٤. قوله ﷺ: ﴿أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر فإن استطعت ان تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة مكن﴾ ﴿الترمذى﴾

٥. قوله ﷺ: أوتروا يا أهل القرآن فإن الله وتر يحب الوتر ﴿الخمسة﴾ وقال الصنعانى المراد بأهل القرآن المؤمنون لانهم الذين صدقوا القرآن خاصة من يتولى حفظه ويقوم

تلاوته ومراعاة حدوده واحكامه والتعليل بأنه تعالى وترفيه كما قال القاضى عياض ان كل ما ناسب الشيئ ادنى مناسبة كان احب اليه.

الأسباب التى بها يتيسر قيام الليل

قال حجة الإسلام الغزالى –رحمه الله تعالى– إعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهرًا أو باطنا. فاما الميسرات الظاهرة فاربعة امور:

الأول: أن لا يكثر الاكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل على القيام وكان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا فترقدوا كثيرًا فتنحسروا عند الموت كثيرًا.

الثانى: أن لا يتعب نفسه بالنهار فى الأعمال التى تعيا بها الجوارح وتضعف بها الاعصاب فإن ذلك أيضًا مجلبة للنوم.

الثالث: ان لا يترك القيلولة بالنهار فانها سنة للإستعانة على قيام الليل.

الرابع: ان لا يحتقب الاوزار بالنهار فإن ذلك فما يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة. قال رجل للحسن: يا أبا سعيد إنى أبيت معافى وأحب قيام الليل واعد طهورى فما بالى لا أقوم فقال: ذنوبك قيدتك.

وأما الميسرات الباطنة فاربعة أمور:

الأول: سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا.

الثانى: خوف غالب بلزوم القلب مع قصر الأمل. فإنه اذا اتفكر فى أهوال الاخرة ودركات جهنم طارفومه وعظم حذره.

الثالث: أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الأيات والاخبار والاثار يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه.

الرابع: وهو أشرف البواعث الحب لله وقوة الإيمان بأنه لا يتكلم بحرف إلا هو مناج ربه وهو مطلع عليه مع مشاهده ما يخطر بقلبه.

موقف قيام الليل فى تحصيل العلم

قال الزرنوجى: من أراد أن يحصل العلم فلابد له من سهر الليال كما قال الشاعر:

بقد رالكد تكسب المعالى ۞ ممن طلب العلا سهر الليالى
تروم العز ثم تنام ليلا ۞ يغوص البحر من طلب اللآلى
علو الكعب بالهمم العوالى ۞ وعن المرء فى سهر الليالى

وقال أيضا وقد أتفق لى نظم فى هذا المعنى:

من شاء أن يختون آماله جُملا ۞ فليتخد ليله فى دركها جملا

ولابد لطالب العلم من المواظبة على الدرس والتكرار فى أول الليل وآخره فان ما بين العشاء ووقت السحروقت مبارك.

قيل: بقد رالكد تعطى ما نزوم ۞ فمن رام المنى ليلا يقوم

وأن قيام الليل من أقوى اسباب الحفظ فقيل: اقوى أسباب الحفط الجدّ والمواظبة وتقيل الغداء وصلاة الليل وقراءة القرآن نظرا.

وقد دخل حسن بن زياد فى التفقه وهو إبن ثمانين سنة ولم يبت على الفراش اربعين سنة فافتى بعد لك اربعين سنة

وأفضل الاوقات شرخ الشباب ووقت السحرو ما بين العشائين.

وقد عرفنا أن العلم سيُحصل بفرحان القلب ففرحان القلب يُحْصل بسهر الليل فقيل من اسهر نفسه بالليل فقد فرح قلبه فى النهار.

وانشد الشيخ الجليل عمر بن محمد النسفى عن موفق قيام الليل شعرا:

أطيعوا وجدوا ولا تكسلوا ۞ وأنتم إلى ربكم ترجعون
ولا نهجعوا فخيار الورى ۞ قليلا ما يهجعون

والله أعلم بالصواب

المراجع

ابن كثير، إسماعيل بن كثير، ١٤٢٨هـ، *تفسير القرآن العظيم*، القاهرة، دار الغد الحديد.

المراغى، أحمد مصطفى، ١٤٢١هـ، *تفسير المراغى*، بيروت، دار الفكر.

الصنعانى، محمد بن إسماعيل، *سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام*، دار الفكر.

السيد سابق، ١٤٣٠هـ، *فقه السنة*، بيروت، دار الفكر.

الأصنهانى، إبن القاسم الحسين بن محمد، ١٤٢٠هـ، *المفردات فى غريب القرآن*، بيروت، دار المعرفة.

الخن مصطفى، ١٤١٦هـ، *الفقهى المنهجى على مذهب الإمام الشافعى*، دمشق، دار القلم.

المناوى، محمد عبد الرءوف، ١٤٧٣هـ، مختصر شرح *الجامع الصغير*، سماراغ، طه فوترا.

الغزالى، ابن الحامد محمد بن محمد، ١٩٩٨هـ، *إحياء علوم الدين*، الفجالة، مكتبة مصر.

الزرنوجى، *تعليم المتعلم طريق التعليم*، سماراغ، طه فوترا.